النشاط الثقافي في الوطن العربي

الجوهر وقيمته في حياتنا الادبية

الجمهورية العربية المتحدة

***

حينما يقف الشيخ الطيب « طه » عمدة قرية الفتى مهران ، بطل مسرحية عبد الرحمن الشرقاوي ، وفتى فتيانه الجسور ، حينما يقف « طه » متأملا مفكرا يسائل نفسه : « ما الذي يجعل للجوهر قيمة ؟! » فانه لم يكن باحثا مثاليا عن جوهر ميتافيزيقي يكر وراء كل ظواهر العالم وأشيائه المتناثرة ، وانما كان يجتاز لحظة الكشف عن حقيقة انسانية بسيطة وشاملة ، لحظة ان انتصر احساس الفتى « وائل » وايمانه بانسانية صديقه وزعيمه « مهران » وبحق مهران ايضا كانسان في أن يخطىء أو يصيب ، حقه كانسان في ان يمارس حياته ، انسانيته، كان الشيخ طه يجتاز هذه اللحظة لكي يكشف عن جوهر العلاقة التي تربط بين هذين الرجلين ، وائل ومهران . ولم يكن ذلك الجوهر الثابت والاصيل هو مجرد « رجولة » مهران وفتاه وائل في مواجهة مرارة الحياة وما قد تعدو به على صداقتهما ، وانما الجوهر الذي اكتشفه طه واكتشف قيمته في آن معا ، هو أن مهران ووائل يقفان بفطرتهما البسيطة والشجاعة الى جانب الانسان فيهما وفي الناس . هذا هو الجوهر وهذه هي قيمته . وقوفهما الى جانب الانسان الساعي الى حقه في ممارسة الحياة بعيدا عن قهر الاذلال او ضباب التأليه حق الانسان في ان يفعل ، فيخطىء أحيانا او يهتز يقينه ، حتى لو كان المخطىء هو مهران البطل ، او كان وائل هو صاحب اليقين المهتز الذي يعود اليه ثباته !

***

ترددت طويلا قبل ان اكتب هذه المقدمة التي أعترف بطولها ، كما أعترف بأنها لا علاقة مباشرة بينها وبين موضوع رسالة القاهرة في هذا الدارس الادبي الكبير السابقة ابان طلبه في الجامعة في قسم مقالات الدكتور لويس عوض التي نشرت منذ عام وبعض عام في الاهرام بعنوان « على هامش الغفران » ، صدرت في احدى حلقات سلسلة كتاب الهلال تحت العنوان نفسه . وعلى الغلاف الخلفي للكتاب فقرة احسب أن كاتبها هو الدكتور لويس عوض نفسه يقول فيها : « والحق ان جوهر المشكلة التي اثارها الدكتور لويس عوض هو جوهر المشكلة التي اثارها من قبل الدكتور طه حسين في العشرينات ومعه كافة أنصار الجديد ، ألا وهي ضرورة فتح باب الاجتهاد في دراسة تراثنا كمقدمة لازمة لتجديد هذا التراث . اما انصار القديم فموقفهم كان دائما « تقديس » التراث القومي واعتباره مساويا لذاته منقطع الوشائج بكل ما حوله من تراث انساني عظيم » . ولكن كاتب هذه الفقرة أغفل حقيقة هامة حين قارن بين ما فعله الدكتور طه حسين في العشرينات من هذا القرن ، وبين ما فعله الدكتور لويس عوض بعد اربعين عاما كاملة . الفرق هنا هو الفرق بين الدكتور طه حسين وبين الدكتور لويس عوض . فالدكتور طه حسين لم يكن « ضعيف الاحساس باللغة العربية ... » كما قال الدكتور لويس عوض عن نفسه في مقدمة ديوانه « بلوتولاند » منذ عشرين عاما ، كذلك لم تكن معرفة طه حسين بالتراث معرفة عرضية او طارئة وانما كانت معرفة أصيلة بعيدة الجذور في اعماق تكوين طه حسين الثقافي والروحي ، لم يكن « تثقف » طه حسين بالتراث ومعرفته به وخبرته بتاريخه وشعابه نتيجة لاحساس بالنقص الثقافي الذي تكفي لتغطيته مجرد القراءة السريعة الخاطفة او المفاجئة ، ولم ينبع اجتهاد طه حسين في تفسير التراث من احساس مرضي بانه « ناقد عربي كبير » وانه مطالب على ذلك بدراسة تراث العربية الثقافي والروحي وبان يكون له انتاج منشور يحمل اثار هذه الدراسة وذلك الاجتهاد . ذلك اننا نعتقد ان معرفة الدكتور لويس عوض بالتراث انما هي معرفة عرضية وطارئة ، ونعتقد ان محاولته لقراءة التراث العربي انما هي نتيجة لاحساس بالنقص الثقافي ـ وليست نتيجة ايمان بضرورة بعث هذا التراث واعادة النظر فيه لتجديده ولربط نمونا الثقافي المعاصر بجذورنا التراثية العربية ـ خاصة بعد ان اصبح الدكتور لويس عوض في الوضع الذي يطالبه فيه الناس بالرأي ـ باعتباره ناقدا كبيرا ـ في مشكلات حياتنا الغفران لابي العلاء المعري ، الى رحلة دانتى الليجيري الى الجحيم الثقافية والفكرية والروحية ، ونعتقد ان قراءة لويس عوض لهذا التراث انما كانت قراءة سريعة وخاطفة لم تكن لها جذور ابدا في حياة هذا الشهر . ففي الاسبوع الاول من شهر ابريل ، صدرت مجموعة اللغة الانكليزية ، او في اثناء اعداده لرسالاته الجامعية في انكلترا او في الفترة التي اشتغل فيها بترجمة هوراس اوبروميثيوس طليقا شيللي او دراسة وتدريس ادب اللغة الانكليزية والاداب الكلاسيكية الاوروبية القديمة .

خرجت دراسة الدكتور لويس عوض اذن « على هامش الغفران » في كتاب مجمل القضية التي يثيرها هو افتراض وجود علاقة تبادل ثقافي واسعة بين الاداب اليونانية واللاتينية والعربية والاوروبية الايطالية بالذات) في القرون الوسطى وفي عصر النهضة . واختار الدكتور لويس ميدانا لدراسته ، تلك الاعمال الادبية التي تحاول تصوير الدار الاخرة ، من رحلة اوديسيوس هوميروس الى هيدز الى رحلة اينياس فرجيل الى هيدز ايضا ، الى رحلة ابن القارح الى الدار الاخرة وما قابله من احداث ومواقف يوم القيامة في رسالة الغفران لابي العلاء المعري ، الى رحلة دانتى الليجيري الى الجحيم والمطهر والفردوس في الكوميديا الالهية .

ولسنا نشك للحظة واحدة في معرفة استاذنا الدكتور لويس عوض بالتراث اليوناني او اللاتيني او المسيحي الوسطي ، وهو مترجم افلاطون واسخيلوس واريستوفانيز وهوراس وشارم فرجيل ودانتي . ولكننا قد نتوقف عند طريقة استخدام الدكتور لويس لهذه المعرفة . فحينما يقول الدكتور لويس عوض بان : « اوديسا هوميروس هي أقدم نص ادبي نعرفه جاء فيه وصف للجنة والجحيم وربما لذلك المطهر الذي يقال انه قائم بينهما ، فالاوديسا فيما نعلم قد نظمت في زمن ما ، ما بين ١٠٠٠ ، ٨٠٠ ق.م ... » (ص ١٥ على هامش الغفران) ، فاننا لا نشك ايضا في ان الدكتور لويس يعرف « كتاب الموتى » المصري القديم ، وانه قد كتب في معابد منفيس القديمة قبل التاريخ الذي ذكره بما لا يقل عن الفين من الاعوام ، وان « كتاب الموتى » نص ادبي لا شك فيه ، وانه يحتوي على وصف تفصيلي للعالم الاخر الذي تصوره المصريون القدماء . كذلك نعتقد ان الدكتور لويس عوض يعرف ـ او ينبغي ان يكون عارفا ـ ان ملحمة جلجامس ـ البطل البابلي ـ قد

وضعت قبل التاريخ الذي ذكره بألف سنة على الاقل في شومر واكتاد قبل انتقالها الى بابل ، وان هذه الملحمة ـ او الاجزاء التي وصلتنا منها ـ تحتوي على وصف تفصيلي للدار الاخرة كما تصورتها حضارات ميسوبوتاميا ـ من خلال رحلة بطلها الى هذه الدار سعيا وراء المعرفة . ولسنا نريد الاستطراد في تعقب تأثرات الثقافة اليونانية بثقافات مصر وبابل وفارس عبر ميديا ـ التي ذكرت في الالياذة ـ وعبر امارات ومستعمرات ومدن الايونيين واليوليين الاغريق على سواحل الاناضول وجزر بحر ايجه ، وعبر مدن الساحل الفينيقي وشمالي وادي النيل .

وحينما يتساءل الدكتور لويس عوض قائلا : « اننا لا نعرف ان كانت جزيرة ايايا هذه جزيرة الحياة أم جزيرة الموت . فلو كانت جزيرة الموت ففيم ذهاب اوديسيوس الى هاديس مملكة الموتى ليلتقي بروح العراف تيريسياس يستدل منها على طريقه الى وطنه بعد طول طواف وضلال ، ولو كانت جزيرة الحياة فكيف نفسر تجمع بعض اوصاف العذاب ومعالم الموت فيها كتحول البشر الى خنازير وظهور الرب هيرميز فيها وهو هادي الموتى في أخص صفاته .. » . حينما يضعنا الدكتور امام هذه الاسئلة فانما نحس برغبته ـ او اتجاه منهجه الدراسي ـ الى لي عنق النص الادبي لكي يصل عن طريقه الى اثبات فرضية تفصيلية ، مما ينفي عن هذا المنهج صفة الامانة العلمية ، او « الحذر » العلمي والحيطة المطلوبة المفترضة في تفسير النص وتقليبه على وجوهه . ان ذهاب اوديسيوس الى « الجحيم » يعني ان هناك جحيما تعرفه الميثولوجيا اليونانية وتميزه بخصائصه المميزة ، غير تلك التي نراها في جزيرة ايايا او جزيرة كالييسو او اية جزيرة اخرى . والكتاب الخامس من الاوديسة يذكر كيف وصل اوديسيوس الى جزيرة ايايا في اثناء هربه من مدينة « ليستريجونيا » التي يأكل أهلها البشر، وكيف جاء هرمز ـ رسولا من عند الالهة وهذه هي أخص صفاته كما وصفه بها هوميروس نفسه عشرات المرات وكما وصفه بها هزيودوس عشرات اخريات ـ ليحذر اوديسيوس ويحصنه من مكر سيرس (سيرسا او كيركا) مالكة الجزيرة وربتها ، ثم كيف نصحت سيرس بنفسها لاوديسيوس بالذهاب الى الدار الاخرة ، ليعرف مصيره وطريقه كاملا من العراف الكاهن تيريزياس . الجزيرة اذن ليست جزيرة للموت وليست جزيرة للحياة ، وانما جاءت قصتها وسط الملحمة كحدث او episode ليكمل ترابط أحداث الملحمة ، التي ينظر اليها باعتبارها تجميعا تاريخيا لاساطير الشعب ومعتقداته وتاريخ مجموعة من ابطاله وتجميع فضائله ومقدساته وبطولاته وتصوراته عن العالم المحيط به ، جاءت هذه القصة وسط الملحمة لكي تكون تجسيدا لتلك القوى الغامضة التي توهمها الانسان في طفولته العقلية تعيش معه على الارض ـ غير تلك التي تنتظره في العالم الاخر ـ تهدد حياته ورجولته وانسانيته ، ولا يمكن الا « للخوف » الذي تملك قلوب بحارة اوديسيوس ـ أن يمنح لهذه القوى فرصتها الذهبية لكي تحقق كل أغراضها ، التي تتركز في النهاية في استلاب انسانية الانسان وتحويله الى حيوان او « شيء » يدور في فلكها . ان الخوف والعجز هو ما مكن سيرس من تحويل البحارة الى خنازير ، وهي نفس القوة التي لم يكن امام اوديسيوس ـ الانسان الذي وهبته الالهة عشبتها الواقية، تميمتها ـ قوة غيبية اخرى ـ سوى الحكمة والشجاعة ، الحذر من سيرس وارهابها بالسيف ، لكي يواجهها وينجو من شرها . الجزيرة صورة لبعض مخاوف الانسان في طفولته العقلية في هذا العالم ، وهي ايضا ـ بتجربة اوديسيوس فيها ـ صورة لحلم الانسان للتخلص من هذه المخاوف . ولكن منهج الدكتور لويس عوض ، حينما انتزع هذه القصة من سياق الملحمة ، وراح يقارن صورها بصور جاءت في اماكن اخرى من الملحمة او من اشعار هزيودوس ، منتزعة هي الاخرى من سياقاتها في الملحمة او في الاشعار ، وحينما لم يحاول الربط بين القصة ووظيفتها في الملحمة ككل ، ولم يحاول الربط بين احداث القصة وصورها وبين اصولها في البناء الميثولوجي للعقيدة الدينية عند الاغريق ، حينما حدث هذا ، فقد منهج الدكتور لويس اتجاهه وغرق في المقارنات الشكلية بين ما جاء هنا وما ورد هناك . وفقدت القصة والملحمة جميعا معناهما ، واقتصر الدكتور لويس الى تقرير انه لا يعرف ان كانت الجزيرة ، جزيرة للموت او جزيرة للحياة .

وفي الصفحة التالية (ص ٢٤ ـ على هامش الغفران) يقول لنا الدكتور لويس عوض : « وقبل ان تأسر كيركا (سيرس) ذات الغدائر المجدولة اوديسيوس وتستبقيه في جزيرتها الموهومة ، مر اوديسيوس بتجربة حين تحطمت سفينته وقذفت به الامواج وحيدا على شاطىء جزيرة اوجيجيا حيث كانت الحورية الساحرة والربة الرهيبة كالييسو ذات الغدائر المجدولة ، بنت أطلس ، ملكة على الجزيرة .. » . ونرجو الدكتور لويس عوض ـ اولا ـ ان يعود الى الاوديسا ، لكي يتأكد من ان تجربة اوديسيوس مع كالييسو كانت « بعد » تجربته مع سيرس ـ من حيث السياق الزمني لرحلة اوديسيوس بعد سقوط طروادة ـ ولم تكن قبلها . بل ان تجربته مع كالييسو ـ هذه التي احتجزته بعد عودته من هيدز وبعد ملاقاته لسكيلا المفزعة ذات الرؤوس الستة ، وبعد مروره بجزائر السيرينيد المغنيات ، وبعد نزوله بجزر ابوللو اله الشمس وغضب الاله على رجاله لذبحهم قطعان ابوللو الغضوب ، كانت تجربته مع كالييسو بعد كل هذه التجارب ، هي اخر ما مر به البطل الجواب اوديسيوس قبل وصوله الى مدينة الفياشيين الذين حملوه على احدى سفنهم الى ايتاكا ، وطنه .

ثم نرجو الدكتور لويس عوض ، ثانيا ، ان يعود الى تجربة اوديسيوس مع كالييسو لكي يكتشف حقيقة وظيفة هرمز ـ مرة اخرى ـ الذي أوصل اوامر زيوس كبير الالهة بناء على رغبة مينرفا ربة الحكمة وحامية اوديسيوس ـ أوصل اوامره الى كالييسو بأن تطلق سراح البطل وبأن تزوده بما يعينه على الوصول الى مدينة الفياشيين التي كانت هي المدينة الموعودة باعادة اوديسيوس الى وطنه ، ثم لكي يكتشف الا محل لتكرار صور جزيرة اوجيجيا في صور جزيرة ايايا (وليس العكس) الا بناء على احتمال واحد ـ هو الاحتمال الذي أبرزه الاستاذ بلفينسن،

الى معلمي المدارس

اجمل الهدايا

بمناسبة اعطاء الجوائز في اخر السنة لتلامذتكم

اعدتها لكم

مكتبة انطوان

فرع شارع الامير بشير

ووافق عليه كل من « ميلين ستيويل » ، « ويليام كوبر » الاول في دراسته المطولة عن الياذة هوميروس وأوديساه ، والثاني في ترجمته للاوديسا ـ وهي أشهر ترجمة الى الانكليزية للملحمة ، هذا الاحتمال القائل بأن قصة سيرس وجزيرة أيايا قد أضيفت الى الاوديسا في عصر لاحق ، يرجح انه عصر الاسكندرية بعد امتزاج الاساطير الهيلينية بالاساطير المصرية القديمة بعد عصر الاسكندر المقدوني .

هذا عن اليونانيات التي لا نشك للحظة في معرفة الدكتور لويس عوض بها معرفة وثيقة ظاهرة لا مطل فيها ، اما عن التراث العربي الذي نشك حتما في معرفته به معرفة تسمح له على اساس علمي « بالاجتهاد » في تفسيره وشرحه وعقد المقارنات المنهجية بينه وبين غيره من الاداب ، فليس لدينا على ما جاء به الدكتور لويس عوض عن هذا التراث في هامشه عن الغفران سوى نقطة وحيدة .

كلنا نذكر بغير شك تلك الضجة التي أثيرت حول شروح الدكتور لويس واجتهاداته لتفسير « رسالة الغفران » لشيخ المعرة ابي العلاء ، ولكشف تأثراتها بالتراث اليوناني القديم . وكلنا نرفض بغير شك الاسلوب السيىء الذي أديرت به المناقشة ، وندين بغير تردد اسلوب توجيه الاتهامات الى عقيدة الانسان او شرفه او وطنيته أو عقله ، خاصة اذا حاول صاحب الاتهام ان يخلط بين تهمته القائمة على مجرد الظن الآثم بالدراسة الادبية وبنتائج هذه الدراسة . ولكن الشيء المؤكد هو ان بعضا من نقاد الدكتور لويس عوض في هذه الاونة ، قد اكتشفوا في حديثه عن رسالة الغفران عددا من الاخطاء العلمية ـ الاخطاء المتعلقة بالحقائق التاريخية او التفسيرات اللغوية او التحليلات المنتهية الى نتائج تتنافى مع قواعد المنهج التحليلي العلمي لظاهرة الاجتماعية او الاثر الادبي موضع البحث .

نذكر من هذه الاخطاء على سبيل المثال ، حديث الدكتور لويس عوض عن اختلاف المعري في شبابه الى خزائن الكتب بأنطاكية مع شخص يدعى « ابن منقذ » لدراسة الادب . وقد اثبت ناقد الدكتور لويس بتحليل دقيق ذكر فيه مصادره ان شخصا واحدا يدعى «اسامة بن منقذ» هو من ذكر في كتب التراث مقرونا باسم ابي العلاء ، واثبت ان اسامة ابن منقذ هذا قد ولد سنة ٤٨٨ هـ ، أي بعد موت ابي العلاء بنحو اربعين سنة . وقد رجعنا الى كتاب الدكتور طه حسين « ذكرى ابي العلاء » فوجدناه قد نقد الخبر على نفس الاسس التي ذكرها الاستاذ الناقد . ونذكر من هذه الاخطاء ايضا ـ على سبيل المثال ـ حديث الدكتور لويس عوض عن راهب « سيشدو شيئا من اوائل علوم الفلاسفة » التقى به المعري اثناء اجتيازه الطريق الى بغداد في دير الفاروس بظاهر اللاذقية ، وان ابا العلاء قد سمع من هذا الراهب كلاما شككه في دينه مما ظهر اثره في شعره الذي كتبه في شبابه الاول . وقد أثبت الاستاذ الناقد ان هذا الخبر لم يظهر في كتب المؤرخين المعاصرين لابي العلاء الذين ترجموا له ، وان الخبر لم يظهر الا عند « القفطي » المشهور بعدائه لابي العلاء ، بعد نحو قرن ونصف قرن من موت شيخ المعرة ، وان كل من ذكروا الخبر بعد ذلك انما نقلوه عن القفطي . ثم ناقش الخبر مناقشة طويلة مدققة مستفيضة من كافة جوانبه ، مناقشة ان لم تدفع الدكتور لويس الى رفض الخبر من اساسه كما فعل ناقده ، فلا أقل من ان تؤثر في تيقن استاذنا الدكتور لويس عوض من خبره ـ الذي يبدو غير ذي أهمية حاسمة في اثبات القضية التي يريد البرهنة عليها ، وهي تأثر ابي العلاء بالثقافة المسيحية واليونانية ـ هذا علاوة على ان الدكتور لويس لم يحاول ابدا ان يذكر مصادره على نحو بين ـ سوى ترديده لكتاب الدكتور طه حسين الذي نقد الخبر واسقطه من حسابه فعلا ـ وسوى ترديده لاسمي القفطي والذهبي دون تحديد لنص معين أو دون تمحيص للخبر الذي يبدو انه لم ينقله عنهما مباشرة ، وانما نقله عن كتاب طه حسين مسقطا من حسابه نقد الدكتور طه لهذا الخبر نفسه .

ونذكر من هذه الاخطار ـ على سبيل المثال ثالثا ـ تفسير الدكتور لويس عوض لبيت شعر قاله ابو العلاء :

فاذا الارض وهي غبراء صارت من دم الطعن وردة كالدهان .

على ان كلمة « وردة » انما تعني هذا النوع المعروف من الزهور، ثم ارجعها الى أصلها في سورة الرحمن ، ولكنه أسقطها على أحد اسماء مريم العذراء « الوردة القرمزية » او الوردة الحمراء « روزا مسكيتا » ، بينما يعرف مفسرو القرآن ـ بالاجماع ، وذوو العلم باللغة العربية واشتقاقاتها وألفاظها ومعانيها ـ ان كلمة « وردة » التي جاءت في سورة الرحمن ، والتي ضمنها المعري في بيته ، انما تعني صفة الحمرة او الاحمرار ، وان المعنى كاملا لعبارة « وردة كالدهان » هو حمراء بلون الدم او الصبغة ، وليست دلالة على نوع من الزهر او رمزا لاي معنى ديني اخر .

لم نكن نود ان يدفع الدكتور لويس عوض نفسه الى موضع الذي يمكن ان يشك في امانته كعالم او دارس ادبي ـ في المرة الاولى ـ حين كان ينشر دراسته تباعا في الاهرام . ثم ها هو تتاح له الفرصة لتصحيح اخطائه ـ او مراجعتها او مناقشة النقد الذي وجه اليه على الاقل ـ عندما أعاد نشر الدراسة في كتاب واحد ، فاذا هو يتجاهل النقد كله ، الا من زاوية ان الرجعية قد هاجمته ، والا أنه قد كتب في نقده ما لو جمع لملأ خمسة مجلدات او ستا ، والا انه قد اصبح شهيد الرجعية المظلوم . حسنا يا استاذنا الدكتور ، واسمح لنا ان نقول اننا نحبك ونحترمك وقد نتعلم منك ، ولكننا ـ مثل حال أرسطو مع أفلاطون على ما نذكر ـ نحب الحقيقة العلمية والامانة العلمية اكثر من حبنا لك . ولم نكن نود لسلسلة كتاب الهلال أن تسمح بنشر كتاب علمي تصدره على اساس انه اجتهاد مثمر في دراسة تراثنا ، بينما تتناثر في صفحاته ـ على الاقل ـ مثل هذه الاخطاء العلمية التي ذكرناها او كشفها كتاب غيرنا ، ولسنا نتعرض هنا لنتائج الدراسة نفسها ، تلك النتائج التي لا تخلو من مغالاة ومبالغة هي الاخرى .

***

في بداية الاسبوع الاول من شهر ابريل صدر كتاب « على هامش

صدر حديثا

فصل في الحكاية

ديوان جديد للشاعر

فتحي سعيد

منشورات دار الاداب

الغفران » للدكتور لويس عوض ، تحت شعار حريته ككاتب وكناقد وكمفكر في الاجتهاد في دراسة التراث الذي غالبا لا يعرف عنه الدكتور لويس الشيء الكثير ، وفي نهاية الاسبوع نفسه ، كتب الدكتور لويس عوض مقالا ضافيا في جريدة الاهرام تحت عنوان « في الخلق والنقد » . يقول الدكتور لويس في مقاله ان ظاهرة خطيرة تبدو على انتاجنا الادبي والنقدي في هذه الايام ... « فالظاهرة العامة التي طرأت على النقد الادبي هي اتجاهه نحو الجهامة والتشاؤم ، والظاهرة العامة التي طرأت على النقد الادبي هي اتجاهه الى الصرامة والعبوس .. » . وهو حين يتحدث عما اصاب الخلق الادبي من جهامة او تشاؤم فانما يفكر بصفة اساسية في هذه السلسلة الطويلة من المسرحيات الجادة التي ظهرت منذ مسرحية « الارانب » للطفي الخولي . وهي المسرحية التي يعتقد الدكتور لويس انها تمثل نقطة تحول في حياة المسرح المصري . ثم يمضي استاذنا الدكتور ليعدد أسماء المسرحيات التي ظهرت في السنتين الاخيرتين ، موزعا على هذه المسرحيات صفات التراجيديا والكوميديا والكوميديا السوداء ! ، وينتهي الى أنه .. « كان المسرح المصري في حقبة « القضية » ، « السبنسة » ، « اللحظة الحرجة » ، و « كوبري الناموس » حتى « حلاق بغداد » يمثل ما يمكن ان نسميه « انتصار الحياة » ، واعتقد ان من حقنا ان نقول عن حصاد المسرح المصري في السنتين الاخيرتين انه يمثل « انكسار الحياة » .. » .

وفي عملية رصد خاطفة يخرج الدكتور لويس بحكم على النقاد والنقد في مصر ، يؤكد انه لم يعد ثمة نقد ولا نقاد ، طالما الدكتور علي الراعي قد اصبح مديرا لمؤسسة المسرح ، وعبد العظيم انيس اصبح أستاذا للاحصاء في الجامعة ... الخ ، وغالي شكري يعمل في صومعته (يا لها من صومعة !) .

الى هنا ونحب ان نتوقف قليلا لنرى حقيقة تلك الظاهرة العامة التي اكتشفها الدكتور لويس . اما بالنسبة لظاهر « الجهامة والتشاؤم » التي أصابت الخلق الادبي — وفي المسرح على وجه الخصوص — فلا نحسبها صحيحة على هذا الوجه المطلق . ففي هذا الموسم وحده ظهرت مسرحيات جادة حقا ، بعض منها ينتهي بموت أبطالها الشرفاء ، وربما كان أبرزهم هو « سليمان الحلبي » ثم « الفتى مهران » . اما سليمان فقد مات راضيا بعد ان وجد حل قضيته ، بعد ان تم التكامل بين وجهي الثورة والعدالة عنده ، وبين وجهي الفعل الصحيح ونتائجه الضارة ، وبين تأمله الاخلاقي والفكري الطويل وفعله النافذ كسكينه الى قلب الظلم . واما الفتى مهران فقد مات بعد ان وزع ميراثه على من هم أهل له ، بعد ان اعطى السيف لصابر قائلا « انه يصلح بك ! » ، وبعد أن حمل الفأس لاسامة الفتى المناضل قائلا : « اننا نحيا بالفأس وبالسيف نموت ! » . ان قدرة سليمان الحلبي على اجتياز متاهة التردد الاخلاقي والفكري التي وقع فيها ، هذه المتاهة التي تجسد — او ترمز — لمتاهة اجتماعية اخرى عاشها وطن سليمان الحلبي حتى وصل الى الجواب الصحيح على السؤال الصحيح ، وهو نفس الجواب الذي وصل اليه سليمان في النهاية ، كما ان هذه النبرة الآملة التي تحوم فوق نهاية مأساة الفتى مهران — رغم هرب الفتى المزيف عوض — وبغض النظر عن ضعفها الفني ، أقول ان هذه وتلك لا تدفعان الى دمغ العملين بالجهامة او التشاؤم ، بقدر ما تدفعان الى اكتشاف احساس الكاتبين بنبل الحزن الانساني ، هذا الاحساس الذي لا يرى في مصير الانسانية انتصاراً مطردا او سهلا بغير ثمن ، وانما يريان في هذا المصير امرا يقينيا ، وان كان تحقيقه صعبا ومؤلما وفادحا .

اننا قد لا نجد الفرصة كاملة متاحة لنا في هذا المجال لمناقشة هذا الحكم الشامل الذي أصدره الدكتور لويس عوض على الخلق الادبي — والمسرحي خاصة — وعلى النقد الادبي كذلك . ولكننا نود ان نذكره بحقائق لم يذكرها ، او تجاهلها ، او أسقطها ، في عملية رصده الشاملة .

فهو اولا لم يذكر شيئا عن اعمال توفيق الحكيم او رشاد رشدي ، كما لم يذكر اعمال الكتاب الشبان الذين ظهروا خلال العامين او الاعوام الثلاثة السابقة على المسرح الحديث وعلى مسرح الجيب ، وربما كان اكثرهم أهمية شوقي عبد الحكيم ومحمود دياب ونبيل فاضل .

وهو ثانيا قد تحدث عن الدكتورين علي الراعي وعبد العظيم انيس باعتبارهما ناقدين كانا قد كرسا جهدهما للعمل النقدي ثم كفا عن ذلك لاعتبارات مختلفة . والذي نذكره هو أيا منهما لم يكن ناقدا محترفا ، او مداوما متتبعا للاعمال الادبية يكتب عنها بصورة مستمرة ، خلا فترة قصيرة لم تستغرق اكثر من عام ١٩٥٦ بالنسبة للدكتور الراعي ، ولم تستغرق اكثر من جزء من عام ١٩٥٨ بالنسبة للدكتور انيس .

وهو ثالثا قد تحدث عن الاستاذ رجاء النقاش بما يفيد انه لم يعد يكتب في النقد ، او انه على الاقل لم يعد يقوم بمهمة الناقد المداوم المتتبع . والذي نعرفه — ما دام الدكتور لويس يتحدث عن المسرح بوجه خاص — ان الاستاذ رجاء النقاش لم يفقل مسرحية واحدة — تقريبا — دون ان يكتب عنها طوال الموسم الحالي على الاقل .

وهو رابعا لم يحاسب نفسه لانه لا يقوم بمهمته النقدية بصورة كاملة او غير كاملة . فنحن لا نذكر انه كتب عن مسرحية واحدة طوال الموسم الحالي . ولا نذكر انه قدم أي عمل نقدي طوال الشهور الثلاثة او الاربعة الاخيرة ، حينما كان مستغرقا في ترجمة آغا ممنون اسخيلوس ونشرها في الاهرام ، في نفس المنبر الذي لا نعتقد انه المكان الملائم لنشر عمل كلاسيكي كأورستية اسخيلوس « على حلقات ! » ، رغم أهمية هذه الترجمة في حد ذاتها . كذلك لا نذكر له عملا نقديا — طوال السنة السابقة على نشر هذه الترجمة — يتمتع بقيمة ما ، غير مقالاته عن الدكتور مندور بمناسبة « وفاة » الدكتور مندور ، وغير مقال عن العقاد بمناسبة « وفاة » العقاد ، وغير كلمة صغيرة عن المعداوي بمناسبة « وفاة » المعداوي ، وغير مقالين او ثلاثة عن السياب بمناسبة « وفاة » السياب ، ولسنا نعرف من ينتظر الدكتور لويس وفاته لكي يكتب عنه كذلك ، بغض النظر عن القيمة النقدية او الفكرية الحقيقية لكل هذه المقالات ، وبغض النظر عن نصيب ما جاء في معظمها من معلومات ، من الصحة او الخطأ ! ولا نذكر له غير هذا ، من مساهمة في متابعة الحركة الادبية ، غير مقال عن راية « الطريق » لنجيب محفوظ ، ثم مقاليه عن قصيدة واحدة او قصيدتين من ديوان صلاح عبد الصبور الاخير ، استغرق معظم هذين المقالين في حديث لا معنى له عن مراسلات حول فلسفة الحب تبادلها راهبان مجهولان في أحد أديرة ايطاليا في قرن ما من القرون الوسطى !!

واخيرا ، يصل الدكتور لويس عوض الى بيت القصيد في مقالته التي تبدأ بالحديث عن ظاهرة خطيرة أصابت الخلق الادبي والنقد الادبي . فبعد حديثه الخاطف عن مسرحيات لم يكتب هو شخصيا عن معظمها وتجاهل جزءا كبيرا من الاعمال الاخرى المعاصرة لها ، وبعد حديثه الخاطف عن النقاد الذين لم يعودوا نقادا ، اذا بالظاهرة كلها تتلخص في مقال كان قد كتبه ناقد مجهول في ٤ فبراير ١٩٦٤ (في مكان ما لم يذكره لنا الدكتور لويس عوض !) عن مسرحية « حلاق بغداد » لالفريد فرج ، ثم في عدد من المقالات كتبها الاستاذ محمود امين العالم عن « الفتى مهران » ، « الفرافير » ، « المهزلة الارضية » لنجيب ادريس ، ثم في مقال واحد كتبه الاستاذ امير اسكندر عن مسرحية « بير السلم » لسعد الدين وهبة قبل أسبوع واحد من « تأليف » الدكتور لويس عوض لمقاله الذي اكتشف فيه هذه « الظاهرة » ! وكلها على ما نذكر مسرحيات لم يكتب عنها الدكتور لويس عوض حرفا واحدا !

خلاصة ظاهرة الصرامة والعبوس التي اصابت النقد الادبي — في رأي الدكتور لويس عوض — هو ان الناقد المجهول ومحمود العالم وامير اسكندر ، قد تساءلوا بصورة او باخرى عن المغزى السياسي الذي يقصده مؤلف العمل المسرحي ، او فسروا العمل المسرحي باعتباره

يضم رموزا تسقط على الواقع السياسي وتنقده وكتبوا ما يفهم منه رفضهم لمعنى الرمز الفني الذي احتوته المسرحية ، او رفضهم للاساس الفكري الفلسفي الذي قامت عليه . والدكتور لويس عوض يقول بعد توضيحه لهذه الصرامة وذلك العبوس : « وليس يكفي في كل هذا ان نستمع الى دعوة ناقد او حاقد او مذعور للحد من حرية التعبير سواء في الخلق او في النقد ، فالخلق بالادب والفن كان وسيكون دائما اداة الانسان في نقد الحياة وتكوين الحياة ، والنقد بالفكر والمعرفة كان وسيكون دائما اداة الانسان في نقد النقد وتصحيح القيم وغربلة الصالح من الطالح دون لجوء الى القهر والقمع » . وهذا كلام عظيم بلا ريب ، نوافق عليه الدكتور لويس عوض تماما . وعلى ذلك ندعوه الى ألا يقهر أو يقمع النقاد ، محرما عليهم ان يحاولوا تفسير النص الادبي من زاوية او من وجهة نظر معينة وان يتخذوا موقفا واضحا مما رأوه في النص – طالما انهم لم يقهروا أو يقمعوا الكتاب الخالقين . فحينما يقول محمود العالم عن مسرحية الفرافير : « ان هذه المسرحية تشيع مفهوما وجوديا فوضويا للحرية ، ما آخطره على حياتنا الثورية الراهنة » ، فانه لا يفهم من عبارته الاخيرة انه يريد ان يقهر يوسف ادريس او يقمعه ، وانما هو ببساطة يضع ما رآه في المسرحية بازاء الواقع ليرى مكانه من الواقع وأثره فيه ، طالما ان الناقد والخالق معا يريان في الادب ظاهرة اجتماعية ، ويريان في اثره مأثرا وافعيا نحسه في اذهان الناس وفي ارواحهم ، ويريان في الاديب الكاتب – خالقا او ناقدا – مفكرا ورائدا ومعلما – ويريان من واجب هذا المعلم الا يعلم الناس شيئا خاطئا او مغلوطا أو ضارا . محمود العالم هنا – وقد اختلف مع تفسيره للفرافير وللمهزلة الارضية وللفتى مهران ، وقد يتفق الدكتور لويس مع نفس التفسير ، ولست أقرن نفسي بأستاذي الدكتور طبعا – يطرح رأيه في العمل ، ويفهم العمل فنيا وفكريا واجتماعيا في وقت واحد ، وهذا منهج نقدي نعرفه ويعرفه الدكتور . ولكنني أزعم ان الدكتور لويس حينما يتحدث عن أن مسؤولية الدولة هي حماية « كل » الوان التعبير الادبي والفني لان الدولة قد اقامت نظام « المونوبسونية » مكان فانون العرض والطلب الذي كان سائدا في النظام الفردي الليبرالي ، أزعم ان الدكتور لويس قد يكون من اوائل من يعانون مساوىء حماية « كل » ألوان التعبير الادبي والفني ، وقد عانيناها هو بالفعل ، وعانيناها معه و « نه » منذ عام وبعض العام حينما كان ينشر دراسته – المذكورة – سلسلة في الاهرام .

واذ أطالب الدكتور لويس بالحرية للكاتب الخالق – في اطار مثلنا الانسانية العامة ، المثل التي تقف الى جانب الانسان لا ضده ، الى جانب حريته وتقدمه لا ضدهما – فاننا نرى من واجبه ان يقف الى جانب حرية الكاتب الناقد كذلك ، فلا يقهره ولا يقمعه . فمن حق الكاتب الخالق ان يكون حزينا – وهو غالبا ما يقدم مبررات حزنه – ومن حق الكاتب الناقد ان يعترض على الحزن ، على ان يقدم مبررات اعتراضه ايضا . من حق الكاتب الناقد ان يجتهد في التراث فيرى فيه هذا الرأي او الاخر ، خطأ او صوابا . ومن حق كاتب ناقد اخر ان يشير الى اخطاء ذلك الاول او ان يطالبه بتصحيح اخطائه . وليس من حق احد ان يتهم المجتهد في عقيدته او شرفه او وطنيته او عقله لمجرد الظن الآثم فحسب .

اننا قد نكون بحاجة الى شيخ طيب مثل الشيخ طه – عمدة قرية الفتى مهران – لكي يكتشف حقيقة جوهر حياتنا الادبية وحقيقة قيمة هذا الجوهر ، الجوهر الذي نراه ولا بد ان يكون معرفة وحرية وايمانا بحق الانسان في الفعل ، فيخطىء احيانا او يهتز يقينه ، حتى لو كان الدكتور لويس عوض هو المخطىء ، وحتى لو كان هو صاحب اليقين المهتز الذي يعود اليه ثباته !

القاهرة — سامي خشبة

« دار الاداب »

تقدم القصاصة البارعه

غادة السمان

في مجموعتها القصصية الجديدة

ليل الغرباء

رؤية جديدة لعالم عجيب واقعي واسطوري في وقت واحد ، في اسلوب متوتر حي أصبحت فيه غادة السمان نسيج وحدها .

يتضمن الكتاب لوحات فنية بريشة الفنان

فاروق البقيلي

يصدر هذا الشهر